مواكبة شعر الفرزدق لأحداث البصرة في العصر الأموي دراسة في الشعر والتاريخ

د. بهجت مهجر حبش الطعمة
الكلية التقنية الهندسية
الجامعة التقنية الجنوبية

الملخص

لقد عكس الشعر واقع الاحداث التأريخية، ومافيها من مضامين فكرية وطبائع اجتماعية ومشاعر إنسانية تكشف عن طبيعة التعامل بين الإنسان وبيئته ومجتمعه، كما عكس أيضا نتائج هذه الاتجاهات وإفرازاتها العقائدية والسياسية والاقتصادية والاجتماعية.

من هنا عول على الشعر في تفسير الحدث التاريخي، ووصفه، والتأثير فيه، فكان له أثر في اماطة اللثام عن تفاصيل كثير من الأحداث التاريخية، بما ينسجم وقوة الحدس الشعري، ونفاذ رؤية الشاعر ذاته. ولم يشهد العصر الأموي شاعرا اشتدت صلته بأرضه وبعصره، وقويت علاقته برجاله وأحداثه كالفرزدق الذي واكب شعره تتابع ولاة العراق وأحداثه ولاسيما أحداث البصرة منذ الأيام الأولى لقيام الدولة الأموية، وانغمس بتصوير كل ما يحيط بقومه وقبيلته من أحداث، محملا الاحداث والمواقع والشخصيات دلالات جديدة نابعة من رؤيته ومن حاجاته وهواجسه، صابغا الاحداث بصبغته الذاتية، وصبغةالمجموعة التي عاش بينها.

وقد ساعدت ثقافة الفرزدق التأريخية ومعاصرته الحدث على أن يكون شاهدا أمينا على عصره، وأن ينفرد شعره برواية كثير من أحداث العصر، كما كان لتركيز الشاعر على تفاصيل الحدث الأثر البالغ في أن يصبح شعره وثيقة تسعف المؤرخين في بناء صورة متكاملة حول أحداث العصر.

Accompaniment of Al-Farazdaq for the events of Basrah in the Umayyad period Study in poetry and history

Dr. Bahjat Muhjar Habash Altuama

College of Engineering Technolog / Southern technical University

Abstract

Poetry can reveal the reality of historical events, and other intellectual contents as well as social realities, human feelings. Poetry, also, reveals the nature of man in dealing with his environment and society. It also reversed results of these trends and its ideological and political implications as well as economic and social development.

From here we can rely on poetry in interpreting the historical event,describing it, and studying its influence. It had an effect in the revelation of the details about many historical events, in harmony with the strength of poetic intuition, and the poet's own vision.

The Umayyad period did not witness a poet who has intensified connection to his land and his time, and strengthened his relationship with his men and events such as Al-Farazdaq who accompanied his poetry sequences the governors of Iraq and its events especially the events in Basrah since the early days for the establishment of the Umayyad state. He absorbed in depicting all that surrounds his people and his tribe from events. He gave events, sites and characters a new signs stemming from his vision among his needs and concerns, colored events with his own self-image, and the color of the group that lived among them.

مدخل

لا يخفى على المتتبع لأحداث العصر الأموي المجاورة بين الشعر والتاريخ، فقد كان الشعر بمثابة الوثيقة التي يعتمد عليها التاريخ، بل هو التاريخ نفسه في مدة قبلالتدوين،وهو الصور المتعددة لهذا التاريخ في صورته السياسية أوالاقتصادية أو الاجتماعية أو الفكرية أو الحربية[١].وفي ظل الصراع والحروب والفتن التي شهدها العصر الأموي اصبحت وظيفة كثير من الشعراء التقاط الحدث وتسجيله وإذاعته من خلال قصائدهم، ومن ثم غلف شعرهم التزام بجوهر الأحداث،إيمانا منهم بأن الشعر رسالة، وان الشاعر يوظف شعره مواكبة لظروف عصره، مع التأكيد أن هذا لا يمنع من تفاعل مادة الحدث التاريخي مع الصياغة الشعرية، إذ "تلتقي المادة الشعرية مع المادة التاريخية لتنتهيا معا الى توثيق حدث ما، أو الإضافة إليه، أو المبالغة في طرحه، أو تفخيم اسلوب عرضه"[٢] .

ولم يشهدالعصر الأموي شاعرا اشتدت صلته بعصره، وقويت علاقته برجاله وأحداثه كالفرزدق[٣]، الذي استجمع حاسته على استقصاء الحدث واستيعابه ليضيفها الى وعائه الشعري، وكان حريصا على أن يدور في فلك الأحداث،حتى إذاأخذت الأحداث مسارها، وأخذ الفرزدق أهبته للحديث عنها،ازدحم ديوانه بذكر الأحداث ورواية أخبار عصره، ولا سيما ما يتعلق بالصراع السياسي الذي شهدته البصرة موطن الشاعر.

المبحث الأول: مواكبة أحداث البصرة أيام معاوية وولده يزيد

أ-العلاقة بين الفرزدق وولاة البصرة

كانت البصرة قبل العصر الأموي توصف بأنها عثمانية الهوى، وعندما تنازل الإمام الحسن(عليهالسلام)عن الخلافة(٤١هـ)،هب حُمران بن أبان على البصرة واستولى عليها، وصعد المنبر وشتم الإمام علي بن أبي طالب(عليه السلام)،وكان حمران هذا من موالي عثمان ابن عفان، سُبيَ يوم معركة عين التمر، وقيل إنه كان

يعمل كاتبا لعثمان ويصلي خلفه، فإذا توقف فتح عليه[٤]، تزوج امرأة في عدتها، فنكل به عثمان، وفرق بينهما، وسيره إلى البصرة[٥].

وبعد أن بويع معاوية بالخلافة وجه الى البصرة بسر بن أرطاة الذي عرف بشدته وحبه لسفك الدماء، إذ سبق لمعاوية أن بعثه –بعد التحكيم–وأمره أن يسير في البلاد ويقتل كل من وجده من شيعة الإمام علي بن أبي طالب(عليه السلام) وأصحابه،وأن يغير على سائر أعماله، ويقتل أصحابه، ولايكف أيديه عن النساء والصبيان.[٦] وفي نهاية عام(٤١هـ)عزل معاوية بسر ابن أرطاة بعد أن استقام له أمر البصرة، وولى أمرها أحد أفراد الأسرة الأموية، وهو عبدالله بن عامر(٤١ هـ – ٤٤ هـ)[٧].

وقدواكب شعر الفرزدق تتابع ولاة البصرة منذ الأيام الأولى لقيام الدولة الأموية،وحين قدم ابن عامر أميرا على البصرة شارك الفرزدق باستقبال الوالي الجديد،فضّلّ بهمالدليل، فقال الفرزدق يهجو الدليل، ويصف متاهتهم وضياعهم في الصحراء :[٨]

مانَحـنُ إنْ جارَتْ صُـدُورُ رِكَابِنَا بِأوّل مَـــنْ غَرّتْ هدايَـةُ عاصِمِ
أرَادَ طَرِيقَ العُنصُلَينِ فياسَرَتْ بِهِ العِيسُ في نَائي الصُّوّى مُتَشائِمِ
وَكَيْـــفَ يَضِـــلُّ العَنْبَرِيُّ بِبَلْدَةٍ بِهَا قُطِعَـتْ عَنْهُ سُيُورُ التّمَائِمِ
وَلَوْ كانَ في غَيرِ الفَلاةِ وَجَدْتُهُ خَتُوعاً بِأعْنَاقِ الجِـداءِ التّوَائِمِ

....

أَلَسْتُمْ بِأصَحابي وَكانَ ابنُ عامرٍ ضَلَلْتُمْ بِهِ فَلْجَ المِيَاهِ العيَالِمِ

فلم يكن الفرزدق شاعرا فحسب بل عظيما من عظماء قومه، يتلقى الولاة والأمراء عندما يصلون الى البصرة، فأما أن تصفو الأمور بينه وبينهمأو تسوء، ولكل موقف عنده ردّ،فكان إذا أقبل الوالي لقيه بادئ الأمر متحفظا، فأما أن يصلح ما بينه وبينه فيقول مادحا، وأما أن تفسد الأمور فتكون المعارضة [٩].

وكانت البصرة أيام ابن عامر في حالة سيئة جداً،فقدتصاعدت حركة الخوارج واشتدت، وأصبحت الامور بيد القبائل، وغلب على البصرة سفهاؤها، وانتشر السلب والنهب والقتل، وكان واليها عبد الله بن عامر رجلاً ليناً[١٠]، فعزله معاوية، وعين الحارث بن عبد الله الازدي في أول سنة (٤٥ هـ)، وبقي الحارث أميراً على البصرة أربعة أشهر، ثم عزلة وعين زياد بن ابيه في اواخر سنة (٤٥ هـ)[١١].

جاء زياد الى البصرة والامور مضطربة جداً، فأخضعها لاجراءات إدارية صارمة هدفها وضع حد لحالة تمرد القبائل وخروجها على السلطة، ومنعها من التجاوز على قوانين الدولة الأموية، ففرض الحظر التام على المدينة، وتقدم في العقوبة، واحتكم الى السيف، وأخذ بالظنة، وعاقب على الشبهة، وساس الناس سياسة لم ير مثلها،فخاف الناس من سلطانه خوفاً شديداً[١٢].

ولقد أدّت سياسة الكبت والعنف والارهاب التي سلكها زياد في البصرةالى تخلي أغلب قبائل البصرة عن حقوقها في إجارة أفرادها حين يقترفون ذنبا، مما أضعف من موقف الشعراء في مواجهتهم لسلطة الدولة الأموية، وقد برز هذا الأمر جليا في شعر الفرزدق حين اضطره زياد الى الفرار من البصرة، إذيروبإن زياداطلبالفرزدقسنة (٥٠هـ)،بعد أن أمعن في سب بني نهشل وفقيم، ونال من سيدهم يزيد بن مسعود النهشلي – وكان أثيرا عند زياد ذا منزلة ومقام– ، فهرب الفرزدق، وكان يلجأ الى الكوفة عندما يأتي زياد الى البصرة، ويعود الى البصرة عندما يذهب زياد الى الكوفة، وعندما تشدد زياد في طلبه ترك الفرزدق العراق متوجها الى الحجاز،فأتبعه زياد صاحب شرطته علي بن زهدم الفقيمى، ولم يلحقه[١٣]، فقال واصفا رحلته الى المدينة وموثقا الحدث:[١٤]

أُنْبِئتُ أنّ العبدَ أمسِ ابنَ زَهْدَمٍ يَطُوفُ وَللغِيني لَهُ كُلُّ تِنْبَالِ
فَـــإنّ بُغَائي إنْ أَرَدْتَ بُغَايَتي عِرَاضُ الصّحاري لا اختباءٌ بأدغالِ
أتَيْتَ ابْنَةَ المَرّارِ تَهْتِكُ سترَها وَلا يُبْتَغَى تحتَ الحَوِيّاتِ أمْثَالي
فإنّكَ لَوْ لاقَيْتَني يا ابنَ زَهْدَمٍ رَجَعْتَ شُعاعِيّاً على شَرّ تِمْثَالِ

وقال أيضا يصف مروره برجل من بني بهز من سليم، فحمله معه على ناقته[١٥]:

أتاني بهَا وَاللّيْلُ نصْفَانِ قَدْ مَضَى أمامي،وَنِصـفٌ قَدْ تَوَلّتْ وَائِمُهْ
فَقَـالَ: تَعَلّـمْ إنّهَـا أرْحَـبِيّـةٌ وَإنّ لكَ اللّـيلَ الذي أنتَ جاشِمُهْ
نَصيحَتُهُ بَعدَ اللّبَابِ التي اشْتَرَى بألّفَينِ لمْ تُحّـجَنْ عَلَيها دَرَاهِمُهْ
وَإنّـكَ إنْ يَقْـدِرْ عَلَيْكَ يكُنْ لهُ لسانُكَ أوْ تُغْـلَقْ عَلَيـكَ أداهِمُهْ
كَفاني بها البَهْزِيُّ جُمْلانَ مَن أبى من النّاسِ وَالجَاني تُخافُ جَرَائِمُهْ

كما ذكر نزوله بالورحاء على بكر بن وائل قبل أن تنتقل عنهم الى المدينة[١٦]:

تَصَرّمَ عَني وُدُّ بَكْرِ بنِ وَائِلٍ وَمَاكادَ عنـــي وُدُّهُمْ يتَصَرّمُ
قَوَارِصُ تَأتِيني فَيَحْتَقِرُونَها وَقَد يَمْلأُ القَطْرُ الأتيَّ، فيَفعُمُ

وهكذا اختفى صوت الفرزدق عن تسجيل أحداث البصرة أيام زياد، إلا إنه استخدم الشعر مادةً لتوثيق الأحداث التاريخية التي جابهته في صراعه مع زياد بن أبيه، وعلى هذا يمكن تقسيم مواكبة شعر الفرزدق للأحداث على قسمين، قسم تعلقب الأحداث السياسية بما فيها من ولاية، وخلافة، وصراعات، وقسم اتكأ فيه الفرزدق على موقفه من قبيلته، ومن ذاته، ومن غيره ، فحين وصل الفرزدق المدينة استجار بسعيد بن العاص – وهو يومئذ والي المدينة من معاوية– واجاره ، فخاطب زياداقائلا :[١٧]

ألا مَنْ مُبْلِغٌ عَنّي زِيَاداً بِأنّي قَـــدْ لَجَـــأتُ إلى سَعِيدِ
وَأني قَدْ فَرَرْتُ إلَيْهِ مِنْكُمْ إلى ذي المَجْدِ وَالحَسَبِ التّلِيدِ
فِرَاراً مِنْ شَتِيمِ الوَجْهِ وَرْدٍ يُفِزُّ الأُسْدَ خَوْفـــاً بِالوَعِيـــدِ

وأبيات الفرزدق وإن اتخذت المديح موضوعا،إلا إنها عبرت عن حالة الخوف والهلع التي كان يعيشها الشاعر، ولم يجد لها إلاّ ادعاء جوار سعيد بن العاص سبيلا .

ولما مات زياد سنة (٥٥هـ)عاد الفرزدق الى البصرة،بعد أن هجاه،–ولم يكن قد هجا زيادا حتمات– مشيدا بالحياة الآمنة التي شمله بها سعيد،ومعبرا عن ابتهاجه بحالة الحرية التي تحققت له بوفاة زياد، فهو وإن عاش آمنا في ظل سعيد كحمام الحرم،إلا إنه صار بعد موت زياد حراكالطير الذي لايخشى مفترسا ولا يرهب صيادا، يحلق في الفضاء بعيدا ليعود الى موطنه بعد غربة دامت أكثر من ثلاثة أعوام: [١٨]

أبْلِغْ زِيَاداً إذا لاقَيْتَ جِيفَتَهُ أنّ الحَمَامَةَ قَدْ طارَتْ من الحَرَمِ
طارَتْ فَما زَالَ يَنْمِيها قَوَادِمُهَا حتى استَغاثَتْ إلى الصّحرَاءِ وَالأجَمِ

وهذه الحرية جعلت الفرزدق يخرج ما بنفسه من حقد وكره تجاه زياد ، وقد سجل هذا الكره عندما تصدّى للشاعر مسكين الدارمي لرثائه زيادا، واصفا زياد بن ابيه بالكافر الذي استحل دماء المسلمين ولم يشبع من اراقتها :[١٩]

أَلا إنَّ مسكيناً بَكى وَهوَ ضارِعٌ لِفَقد امرِئٍ ما كانَ يَشبَعُ طائرُه
إذا ذُكِرَت أَيدي الكِرامِ إلى النَدى وَآثارُها ذَمَّت يَدَيـه مَعاشِرُه
وَلا تَبكِ مِن فَقدِ امرِئٍ لَستَ ذاكِراً لَهُ لامَةً إلّا استَمَرَّت مَرائِرُه

وهنا يسجل الفرزدق المدى الذي وصل إليه بطش السلطة السياسية الأموية بمعارضيها، والنهج الذي انتهجه رموز السلطة السياسية الأموية في إخافة الناس وترهيبهم، فالفرزدق المعتز بقبيلته المتعالي بقوتها يرتعد من زياد والي العراق، ولم يكن يجرأ على هجائه في حياته، لأنه على يقين ان قبيلته غير قادرة على حمايته من بطش زياد، إذ يقول :[٢٠]

رَأيتُكَ مَن تَغضَبْ علَيه من امرىء ولَوْ كانَ ذا رَهْطٍ يَبِتْ غيرَ نائمِ
أغَرُّ إذا اغْبَــرّ اللّئــامُ تَخايَلَتْ يَداهُ بِسَــيْلِ المُفْعَمِ المُتَراكِمِ
نَمَتْكَ العَرانِينُ الطّــوَالُ وَلاأرى لسَعْيِكَ إلاّ جَــاهِداً غَيرَ لائمِ
ألَمْ يأتِـه أنّنـــي تَخَلّلُ نَـاقَتي بنعْمــَانَ أطْرَافَ الأرَاكِ النّوَاعِمِ
مُقَيَّدَةً تَرْعَــى البَرِيرَ وَرَحْلُهَـا بِمَكّـةَ مُلْقــًى عَـائذٌ بالمَحـارِمِ
فإلاّ تَدارَكْنـــي مِنَ الله نعْمَـةً وَمن آلِ حَرْبٍ أُلْقَ طَيرَ الأشايِمِ
فدَعْني أكُنْ ما كُنتُ حَيّاً حَمامةً من القاطِنَاتِ البَيتِ غَيرِ الرّوَائِمِ

يقر الفرزدق بخوفه الشديد من زياد الذي اضطره الى ترك أهله ووطنه،وهو خوف ظل أثره واضحا في حياة الفرزدق؛ إذ لم ينسه أبدا، وكان يتذكره بين الحين والآخر في مراحل حياته المختلفة، ومن ذلك ما قاله في مديحه لهشام بن عبدالملك يذكر ملاحقة خالد القسري له بسبب هجاء قاله فيه:[٢١]

وَلَوْ كُنتُ أخشَى خالِداً أنْ يَروعَني لَطَرْتُ بِوافِرٍ يشُـهُ غَيرَ جادِفِ
كما طِرْتُ مِنْ مِصْــرَيْ زِيادٍ وَإنّهُ لَتَصْرِفُ ليأ نَيْــابُـهُ بِالمَتَالِفِ

و(مصري زياد) هما العراقان البصرة وسوادها(الأهواز،وفارس) والكوفة وسوادها،وكان زياد أول من جمع له معاوية العراقين، فاستخلف سمرة بن جندب البصرة، وشخص إلى الكوفة، وكان يقيم ستة أشهر بالكوفة، وستة أشهر بالبصرة،[٢٢] فلما مات زياد في الكوفة،أقر معاوية سمرة على البصرة ستة أشهر ثم عزله، وخلفه عبد الله بن عمرو بن غيلان، فأقام أميرا على البصرة ستة أشهر ثم عزله معاوية، وعين عبيد الله بن زياد واليا على البصرة سنة (٥٥هـ)، فقصده الفرزدق ليمدحه في أول أيام ولايته، طمعا في ارضائه وكسب المال :[٢٣]

أَتَيْتُكَ من بُعْدِ المَسيرِ عَلى الوَجَا رَجاءَ نَوَالٍ منْكَ يابنَ زِيَـادِ
خَوَاضِـعَ يَعْمِـينَ اللُّغَامَ كَأنّـــما مَنَاسِمُهَـا مَعْلُولَـةٌ بِجِسَـادِ

ويجد المتتبع لشعر الفرزدق أن الشاعر وهو يوثق علاقته برجال الدولة الأموية يترجّح بين قيم سكنت نفسه وهي قيم البداوة والاخلاص للقبيلة، وقيم عملية جديدة مثل الكسب المادي، فرضتها طبيعة الحياةالحضرية الجديدة وطبيعة الحكومة المركزية في البصرة.

ب-مواكبة أحداث الثورة ضد الأمويين

مات معاوية وتولى يزيد بن معاوية الخلافة فجمع لعبيد الله بن زياد ولاية العراق، وقد شهد عهد عبيد الله في العراق ولاسيما البصرة مجموعة من الحركات السياسية المعارضة للدولة الاموية، فقد كانت المدة التي أعقبت وفاة معاوية من أخصب الأوقات في حركاتها السياسية والعسكرية المضادة للدولة الاموية،إذ ايّد بعض البصريين ثورة الإمام الحسين بن علي (عليه السلام) واجتمعوا وقرروا الخروج على عبيد الله بن زياد، وكاتبوا الحسين(عليه السلام)، واجابهم عن ذلك، ويبدو أن الفرزدق كان منالمتعاطفين مع هذه الثورة، إذ يُروى إن الفرزدق قابل الإمام الحسين(عليه السلام) في طريقه الى الكوفة،"فسأله:كيف تركت الناس، فقال: تركت الناس قلوبهم معك، وسيوفهم عليك، والدنيا مطلوبة، وهي بيد بني أمية، والأمر الى الله عزّ وجل، والقضاء ينزل من السماء بما يشاء"[٢٤]، ويذكر الأصفهاني أيضا"فلما قتل الحسين صلوات الله عليه قال الفرزدق: انظروا فإن غضبت العرب لابن سيدها وخيرها فاعلموا أنه سيدوم عزها وتبقى هيبتها وإن صبرت عليه ولم تتغير لم يزدها الله إلا ذلا إلى آخر الدهر وأنشد في ذلك (فإن أنتمُ لم تثأَروا لابن خيركم ... فألقوا السلاح واغزِلوا بالمغازِل)"[٢٥]، كما تنسب للفرزدق أبيات في رثاء هاني بن عروة ومسلم بن عقيل:[٢٦]

فإن كُنْت لاتَدْرِينَ ما الموتُ فَانْظُرِي إلى هانئٍ في السُّوقِ وَابْنِ عَقيلِ
إلى بطَلٍ قد هشّمَ السيفُ وجهه وآخرَ يهـــوِي من طَمـــارٍ قَتيلِ
أَصابهمـا أمرُ الأميرِ فأصبحـا أحاديـثَ من يسـرِي بكلّ سَبيلِ
تَرِي جسداً قد غَيرَ الموتُ لونه ونَضْـــحَ دمٍ قد سالَ كلّ مسيلِ
فَتنهو أحْيى من فتـــاةٍ حَيِيَّةٍ وأقطـــعَ من ذِي شَفْرَتيْنِ صَقيلِ

كذلك نشطت دعاية ابن الزبير في أيام عبيد الله بن زياد، وخالف أغلب أهل البصرة ابن زياد، الذي سعى الى استمالة بعض قبائلها، واستطاع أن يجدد الحلف بين الأزد وربيعة- بعد أن انفق مالا كثيرا- واتفقوا على أن يردوه إلى دار الإمارة، وسارت الأزد ورئيسهم مسعود بن عمرو، وسارت ربيعة وعليهم مالك بن مسمع، وأخذوا سكة المربد، وجاء مسعود فدخل المسجد وصعد المنبر،فهاجت في البصرة ثورة كبيرة، سجل الفرزدق أغلب تفاصيلها، فقد كان الفرزدق يرى في حلف الأزد وربيعة عداءً معلنا لقبيلته :(٢٧)

أَتَرْضَى بَنُو شَيْبَانَ، لله دَرُّهُمْ وَبَكْرٌ جَميـعاً كلَّ مُـثُرٍ وَمُعْدَمِ
بِأَزْدِ عُمَان إِخْوَةٌ دُونَ قَوْمِهِمْ لقد زَعَموا في رَأيِهِمْ غَيرَ مَرْغَمِ

كماأشار في بعض من ابياته التوجه جيش بني تميم بقيادة عبس بن طلق بن ربيعة الصريمي الى المربد، وانهم أتوا مسعوداً وهو على المنبر فاستنزلوه وقتلوه، فانهزم أصحابه، وهرب أشيم بن شقيق بن ثور – رئيس بكر بن وائل-،فطعنه أحدهم فنجا بها:(٢٨)

لوْ أن أشْيمَ لمْ يسْبقْ أسنَتنا وأخْطأالبابَ إذ نيراننا تقدُ
إذاً لصَاحبَ مَسْعوداً وصاحبه وقدْتهافتتْ الأعْفاجُ والكبدُ

وحين سمع ابن زياد بخبر الثورة هرب الى الشام، وبقي أهل البصرة من غير أمير، فتنادت قبائل البصرة الى الصلح ، وجعلوا عبد الملك بن عبد الله بن عامر عليهم أميرا لمدة شهر، ثم جعلوا عبد الله بن الحارث بن عبد المطلب الملقب بـ(ببة)، فظل شهرين والياً عليهم، وذلك أول جمادى الآخرة سنة (٦٤هـ)، ثم لزم بيته(٢٩)، فكتب أهل البصرة إلى ابن الزبير، وقد وثق الفرزدق بيعة أهل البصرة لعبد الله بن الحارث (ببة) واليا عليهم، بقوله :(٣٠)

وَبايَعتْ أقواماً وَفَيتْ بِعهدِهم وببة قدْ بايَعْتـهُغير نـادِم

المبحث الثاني: مواكبة أحداث البصرة أيام الزبيريين

لقد كان الفرزدق يعدّ نفسه لسان القبيلة المنافح عنها، يفرض ذلك عليه مكانته في بيته، وطبعه الذي بني عليه، لذا انغمس بتصوير كلما يحيطها من أحداث، موثقا ضلوع الأمويين وولاتهم في اصطناع القبائل العربية الجانبهم، وإثارة الفتن بينها، وقد تصدى الفرزدق للدفاع عن مواقف قومه، متعصبا لهم، وناصحا ومصححا لما يراه قد يسيء لسمعتهم، وهو يحكي في شعره الوقائع والأحداث، فبعد أن تمكن ابن الزبير من السيطرة على البصرة سنة(٦٤هـ)عين الحارث ابن عبد الله بن أبي ربيعة، والذي سمّاه أهل البصرة (القباع)[٣١] ولعل أهم مايحسب للوالي الجديد محاولته اخفات صوت العصبية القبلية المدوي في البصرة، سعيا منه لتوحيد صفوف البصريين لمواجهة أعداء الزبيريين، فلاحق الفرزدق وجرير، وهدم داريهما، إذ كان شعرهما شاهدا على عودة البداوة والعصبية ومؤججا لها، مما أثر سلبا على الوضع الداخلي في البصرة، واستمرار حالة التوتر والاقتتال بين قبائلها، وكثيرا ما أدت مساجلاتهم الشعرية الى العنف وسفك الدماء بين بني يربوع وبني مجاشع في البصرة[٣٢]،وفي ذلك يقول الفرزدق:[٣٣]

أَحارثُ دارِي مَرَّتيْنِ هَدَمْتَهـا وأَنْتَ ابنُ أُخْتٍ لا تُخافُ غَوَائلُـهْ
وأنتَ أمرُؤ بطحاءُ مكة لمْ يزلْ بها منكم مُعطي الجزيلِ وفاعلُهْ
فقُلنـَا لـهُ : لا تُشْمتَنّ عدُوّنـا ولاتنسَ من أصْحابِنا مَن نُواصلُه
وقَبْلَكَ ما أعيَيْتُ كاسِرَ عيْنـه زيـاداً فلـــم تقدرْ عليّ حبائلُـهْ
فأقسمتُ لا آتيهِ تسعينَ حِجَّةً ولو كُسِرَتْ عُنْقُ القُبَاعِ وكاهلُـه

تؤكد أبيات الفرزدق التي غلب عليها طابع المفاخرة والمنافرة صورة الصراع الدائر في البصرة بين القيم البدوية القبلية القائمة على العصبية، والقيم الحضرية والمبادئ التوحيدية الجديدة، التي سعى والي البصرة الجديد لنشرها، إلا إن تسارع الأحداث لم تمهله كثيرا فقد عزله ابن الزبيرواستعمل أخاه مصعباً على العراق سنة (٦٧هـ).

قدم مصعب الى البصرة وخطب في أهلها قائلا:"ياأهل البصرة بلغني أنكم تلقبون أمراءكم وقد سميت نفسي الجزار"[٣٤]، ثم توجه الى الكوفة لقتال المختار الثقفي، فأطلت

أموية البصرة برؤوسها، وكان مالك بن مسمع (رأس بكر) أموي الهوى، وقد أجار خالد بن عبد الله بن أسيد مبعوث بني أمية، وتابعته في ذلك الأزد وربيعة، ووقفت تميم تناهضهم، وتنصر عبّاد بن الحصين التميمي الذي كان قائما على شرطة ابن معمر نائب مصعب في البصرة، وكان مصعبإ ذا شخص عن البصرة استخلف عليها عبيدالله بن معمر[٣٥] ، واقتتلوا في الجفرة سنة (٧٠هـ)ثم اصطلحوا على أن يخرج خالد بن عبد الله من البصرة، وحين عاد مصعب الى البصرة فرّ ابن مسمع ومن معه، وكانت بعض من بني تميم في البصرة قد انضمت الى انصار الأمويين،[٣٦] فقام الفرزدق منددا بالثائرين، ومستغربا من انحياز هؤلاء التميميين تحت ظلال الأزد، مخالفين قومهم، ومتنكرين لمصعب، فقال :[٣٧]

عَجِبْتُ لأقْـــوَام تَميـمٌ أبُوهُمُ وَهُمْ في بن يسَعد عِظامُ المَبارِكِ
وَكَانُوا سَرَاةَ الحَيّ قَبلَ مَسيرِهم مع الأسْدِ مُصْفَرّاً لحاها وَمالِكِ
وَنَحْنُ نَفَيْنَا مَالِــكاً عَنْ بِلادِنَا وَنَحْــنُ فَقَــأنَا عَيْنَهُ بِالنّيازِكِ
فَماظَنُّكُمْ بابنِ الحَوَارِيّ مُصْعَبٍ إذا افْتَرّ عَنْ أنْيَابِهِ غَيْرَ ضاحِكِ

والفرزدق عندما ينتقد بعضا من قومه فإنما بدافعالحب والحرص على سلامتهم ووحدتهم في مواجهة الأخطار المحيطة بهم، فهو يرى أن طبيعة الظرف الذي تعيشه البصرة تحتم عليهم أن يكونوا متوحدين، وفي صف واحد مع الزبيريين.

وعندما عزل عبدالله بن الزبير أخاه مصعباً عن العراق– لبعض الوقت –بعد أن قتل المختار، وولى مكانه ابنه حمزة بن عبدالله، قصده الفرزدق مادحا أول وصوله البصرة مؤكدا استمرار ولاء قبيلته لآل الزبير، وطامعا بنواله، فقد كان حمزة هذا" جوادا شجاعامخلطا يجود أحيانا حتى لايدع شيئا يملكه إلا وهبه، ويمنع أحيانا مالا يمنع من مثله"[٣٨]، وهذا يفسر كثرة الإشارات الخاصة بالعطاء للممدوح في ديوان الفرزدق[٣٩]، فالوالي الجديد ارتبط عنده بالعطاء أكثر من أي شيء آخر، يقول الفرزدق :[٤٠]

إنْ تَكُ تَبخَلْ يابنَ عَمرٍو وَتَعتَلِلْ فَإنّ ابنَ عَبْدِالله حَمْزَةَ فَاعِلُ
سَمــَا بِيَدَيْــهِ للمَعَالـي فَنَالَهَا وَغالَتْ رِجالاً دونَ ذاكَ الغَوائِلُ

ومن الأحداث التي وثقها الفرزدق أيام حمزة في البصرة هزيمة جيشعبداللهبنعميرالليثي، وكان ابن الزبير قد كتب إلى حمزة وهو بالبصرة يأمره أن يوجه عبد الله بن عمير

الليثي إلى قتال النجدية بالبحرين، فوجهه فانهزم، فلم يزل قاعدا في منزله لايركب استحياء من هزيمته، فقال الفرزدق :(٤١)

تَمَنّيتَ عبدالله،أصْحَابَ نَجدة فَلَمّا لَقِيتَ القَوْمَ وَلّيْتَ سَابِقا
وَمَافَرّ مِنْ جَيْشٍ أميرٌ عَلِمْتُهُ فَيُدْعى طِوَال الدّهْرِ إلاّمُنَافقا
تمَنّيْتَهُمْ حتى إذاما لَقِيتَهُمْ تَرَكْتَ لهمْ قَبل الضِّرَابِ السُّرَادِقا

المبحث الثالث: مواكبة أحداث البصرة أيام بني مروان

أ-موقف الفرزدق وقبيلته من الولاة

يواصل الفرزدق متابعته لكل حدث جديد يخص قبيلته وولايته،محملا الاحداث والمواقع والشخصيات دلالات جديدة نابعة من رؤيته ومن حاجاته وهواجسه،صابغا الاحداث بصبغته الذاتية، وصبغة المجموعة التي يعيش بينها،فبعد أن قتل مصعب بن الزبير في معركة دير الجاثليق سنة (٧٢ هـ)، بدأت البصرة عهدها في ظل بني مروان،إذ تولّى خالد بن عبد الله بن خالد بن اسيد البصرة واعمالها، بأمر من عبدالملكبنمروان، فوجه خالد عبيد الله بن ابي بكرة خليفته على البصرة، وظل ابن ابي بكرة على البصرة حتى قدم خالد، وكان خالد بن عبد الله بن أسيد قد فر عن مصعب بن الزبير يوم الجفرة بالبصرة، فراح الفرزدق يذّكر أهل البصرة بهذا الحدث، ويثبّت موقفه وموقف قبيلته المعارض من الوالي الجديد :(٤٢)

وكُلُّ بنِي السّوْداءِ قدْ فرّ فرة فلَمْ يبقْ إلا فرْة في استِ خالدِ
فَضَحْتُم أميرَ المُؤمنينَ وأنْتم تَمرُونَ سودَانا غلاظ السواعدِ

ويبدو أن خالد بن عبد الله بن أسيد قد سجن الفرزدق بسبب أبياته السابقة وموقف التحريض الذي اتخذه، حيث نجد للفرزدق قصيدة يمدح فيها عبيد الله بن أبي بكرة ويشكره لأنه انقذه من يد خالد بن عبد الله، وما كان ينتظره من انتقام :(٤٣)

أَبا حاتِمٍ ماحـــاتِمٌ في زَمانِـهِ وَلاالنَيلُ تَرمي بِالسَفينِ غَوارِبُه
بِأَجوَدَ عِندَ الجودِ مِنكَ وَلا الَّذي عَلا بِغُثاءٍ ســورَ عانَةَ غارِبُه

....

وَماعَدَّ ذو فَضلٍ عَلى أَهلِ نعمَةٍ كَفَضلُكَ عِندي حينَ عَبَّت عَواقِبُه
تَداركَني من خالدٍ بَعدَما التقَت وَراءَ يَـدي أَنيابُـهُ وَمَخـالِبُـه
وَكَم أَدركَت أَسبابَ حَبلَكَ منرِدٍ عَلى زَمَنٍ باداكَ وَالمـوتُ كارِبُه
مَدَدتَ لَهُ مِنها قِوىً حينَ نالَها تَنَفَّسَ في رَوحٍ وَأَسـهَلَ جانِبُه

وللفرزدق أيضا أبيات يصور فيها حال البصرة وما أصابها من العوز والفقر أيام خالد بن عبد الله، يدعوه فيها الى سماع شكوى الناس والنظر فيها :(٤٤)

شَكَونا إِلَيكَ الجَهدَ في السَنَةِ الَّتي أَقامَـتْ عَلـى أَموالِنا آفَةَ المَحلِ
فَلَم يَبقَ مِن مـالٍ يَسومُ بِأَهلِه وَلا مَرتَـعٌ في حَـزمِ أَرضٍ وَلا سَهلِ
سِواكَ فَأَشكُ القَومَ ما قَد أَصابَهُم عَلى الجَهدِ وَالبَلوى الَّتي كُنتَ قَد تُبلي

وتؤكد الأبيات السابقة ان حالة التعاسة والبؤس التي حلّت بالفقراء في عهد خالد بن عبد الله كانت بالغة القسوة، ولم يكن بمقدور خالد أن يفعل شيئا لتخفيف مساوئ حياة أهل البصرة ومعاناتهم، ولاسيما بعد تصاعد نشاط الخوارج في البحرين والأحواز، الأمر الذي دعا عبد الملك لعزله سنة (٧٣هـ) وتولية أخاه بشر على البصرة أضافة الى الكوفة.

سار بشر الى البصرة واستخلف على الكوفة عمرو بن حريث(٤٥)، وكان بشر رغم شدته وحزمه، كريما طليق الوجه، يجيز على الشعر بألوف(٤٦)،لذا كانموقفالفرزدقمن الوالي الجديد مختلفا عمّا كان عليه من الوالي السابق،فقد أخذ يتقرب من مجلسه مادحا :(٤٧)

لِبِشْرِ بنِ مَرْوَانٍ عَلى كُلّ حالَةٍ من الدّهرِ فضْلٌ في الرَّخاء وفي الجَهدِ
قريعُ قُرَيشٍ وَالّذيـــباعَ مَالَهُ ليكـــسبَ حَمـــداً حـــينَ لاأحدٌ يُجدي
يُنافِسُ بِشْرٌ في السّمَاحةِ وَالنّدى لِيُحْرِزَ غَايَـــاتِ المَكـــارِمِ بالحَمْدِ
فكَمْ جبرَتْ كفّاكَ يابشرُ من فتىً ضَريكٍ وكمْ عَيّلـــتَ قوْماً على عَمدِ
وَصَيّرْتَ ذا فَقْرٍ غَنيّـاً وَمُثْرِيـاً فَقيـــراً وَكُلاّ قد حـذَوْتَ بلا وَعـــدِ

والحق ان الفرزدق لم يكن من أنصار الأمويين على الرغم من مديحه عددا من ملوكهم وولاتهم طمعا بنوالهم أو دفعا لنقمتهم، إلا إن منيقرأ مدائحه في بشر يشعر بالتقدير العالي والتبجيل الذي كان يكنه الشاعر لممدوحه، فقد رأينا كيف يلح الفرزدق على صفات الشجاعة والهيبة والسماحة والندى، وقد كان لهذا الأمر أثره الكبير في

تحسين صورة الأمير الجديد عند مجتمع أهل البصرة، لقوة تأثير هذا الشعر، وجعله الوسيلة الإعلامية الضاربة في المجتمع، وبالمقابل ارتفعت منزلة الفرزدق عند بشر حتى قيل إنه صار من ندمائه، لكن فرحة الفرزدق لم تدم طويلا، إذ غالت المنية بشراسنة (٧٥ هـ)، وكان أول أمير مات بالبصرة، ودفن فيها، فوقف الفرزدق على قبره راثيا بعد أن عقر فرسه، وهي سنّة من سنن الجاهلية، يشار بها الى عظمة الرجل الميت:(٤٨)

أعَيْنَيَّ إلاّ تُســـعْداني ألُمْكُمَا ... فَما بَعدَ بِشرٍ من عَزَاءٍ وَلاصـــبرِ
وَقَلّ جَدَاءً عَـــبْرَةٌ سفْحَانهَا ... على أنّهَا تَشفي الحرارَةَ في الصّدرِ
ولَوْ أنّ قَوْماً قاتَلُوا المَوْتَ قَبْلَنَا ... بشَيْءٍ لَقَاتَلْنَا المَنيّةَ عَن بِشـــرِ
وَلَكِنْ فُجِعْنَا والرّزِيئـــــةُ مِثْلُـهُ ... بِأبْيَضَ مَيْمُونِ النّقيبَةِ وَالأمـرِ
أَلَمْ تَرَ أنّ الأرْضَ هُدّتْ جبالُهَا ... وَأنّ نجُومَ اللّيلِ بعـدَكَ لا تَسرِي
وَمَا أحَدٌ ذُو فَاقَـــةٍ كَانَ مِثْلَنَا ... إلَيْـهِ وَلَكِنْ لابَـقيّـةَ للدّهْـــرِ
فإنْ لاتَكُنْ هِنْدٌ بكَتهُ،فقد بكتْ ... عَلَيْهِ الثُّرَيّا في كَوَاكِبِهـا الزُّهـرِ

...

سَيَأتي أميـرَ المُؤمنيـنَ نَعيُّـهُ ... وَيَنْمي إلى عَبْدِالعَزيزِ إلى مِصْرِ
بأنّ أبَا مَرْوَانَ بِشْـراً أخَاكُمَا ... ثَوى غَيْرَ مَتْبُوعٍ بَعَجْزٍ وَلا غَدرِ
وَقَد كانَ حَيّاتُ العِرَاقِ يَخَفْنَـهُ ... وَحَيّاتُ مَا بَينَ اليَمَامَةِ وَالقَهْرِ
وَقَدْ أُوثَرتْ أرْضٌ عَلَينا تَضَمّنَتْ ... رَبيعَ اليَتَامَى وَالمُقِيمَ عَلى الثَّغْرِ

ويلاحظ من رثاء الفرزدق أنه كان يحرص" على إظهار حادثة الموت السياسيب مظهر النائبة الشاملة، والمصاب العام الجلل، حين تفقد الرعية معروفه وعنايته، كما يستحضر الآيدلوجيا في موقف الرثاء، فيظهر الفقيد مستوجبا للدعاء والترحم الطوعي التلقائي من لدن الرعية المنكوبة"(٤٩).

تولى الحجاج بن يوسف الثقفي امرة العراق بعد بشر، وراح شعر الفرزدق يصف طبيعة تلك المرحلة من تاريخ البصرة، والصعوبات والتحدياتالكبيرة التي واجهت الحجاجخلال سعيه لتثبيت أركان حكم بني أمية، وتحقيق الامن والاستقرار في البصرة،ومنأخطر تلك التحديات الخوارج الذين كانوا ينازعون السلطة الاموية الخلافة

في العراق،وكان الحجاج بأشد الحاجة الى جيش لمحاربتهم، إلا إن القبائل العربية لم تكن راغبة في مساعدته، فعزم على اجبار الناس على الخدمة في الجيش والاشتراك في حرب الخوارج،" ومن ذلك أن الحجاج لما ولّى تميم بن زيد القيني السند أمره أن يدخل البصرة ويخرج من أهلها من شاء، فجاءت عجوز إلى الفرزدق، وقالت له : إني استجرت بقبر أبيك، وأتت منه بحصيات، فقال: ماشأنك؟ قالت: إن تميم بن زيد خرج بابن لي معه، ولاقرة لعيني ولا كاسب علي غيره، فقاللها: ومااسمابنك؟ قالت: حبيش، فكتب إلىتميم :

تميمَ بن زيدٍ لا تكوننَّ حاجتيب ظـــهرٍ فلا يَعيا عليّ جوابُها
وهب لي حنيساً واحتسِب فيه منّةً لعبَـــرةِ أمٍّ لا يسوغُ شرابُها
أتتني فعـــاذَت يـاتـــميمُ بغالبٍ وبالحفرةِ السافي عليها تُرابُها
وقَد عَلِم الأقـــوامُ أنكَ ماجدٌ وليثٌ إذا ماالحربُ شبَّ شِهابها

فلما ورد الكتاب على تميم تشكك في الاسم فقال: أحبيش أمخنيس؟ فقال: انظروا من له مثل هذا الاسم في عسكرنا، فأصيب ستة ما بين حبيش وخنيس، فوجه بهم إليه".[٥٠] كما مضى الحجاج بسياسته في استأصال جذور التمرد من نفوس العراقيين، فرأى أن يبعث بهم الى الثغور،وجهز سنة (٨٠هـ) جيشا كثيفا، قوامه عشرون ألفا من أهل الكوفة، وعشرون ألفا من أهل البصرة، يقودهم عبد الرحمن بن محمد بن الأشعث لحرب رتبيل في سجستان، لكن ابن الاشعث سرعان ما تمرد على الحجاج،وانضم إليه المقاتلون الكوفيون والبصريون، ودخل ابن الأشعث البصرة فبايعهأهلها، وجاء جيش الشام ينصر الحجاج فكانت وقعة الزاوية سنة (٨٣هـ)، التي قتل فيها الكثير من أهل البصرة، ومنهم جماعة من بني تميم قبيلة الفرزدق الذي وثق الحدث برثائه من قُتِل منهم قائلا :[٥١]

لَوْ أعْـــلَمُ الأيّـامَ رَاجِـعَـةً لـنَـا بكَيتُ على أهْلِ القرَى من مُجاشِعِ
بَكَيتُ على القَوْمِ الّذينَ هَوَتْ بهِمْ دَعَائمُ مَجْدٍ كانَ ضَـــخمَ الدّسائِعِ
إذا ما بكـــى العَجْعاجُ هيّجَ عَبْرَةً لعَيْنَي حَزينٍ شَـــجْوُهُ غَيرُ رَاجِعِ
فإنْ أبْـــكِ قَوْمـــي يانَوَارُ فإنّني أرَى مَسْجِدَيهِمْ منهمُ كالبَلاقِعِ
خَلاءَينِ بَعدَ الحِلْمِ وَالجَهلِ فيهما وَبَعْدَ عُبابيِّ النّدَى المُتَـدافِعِ

فأصْبَحْتُ قَدْ كادَتْ بُيوتي يَنالُها بحَيْثُ انتَهَى سَيلُ التِّلاعِ الدّوَافِعِ
على أنّ فِينَا مِنْ بَقَايا كُهُولِنَا أُسَاةَ الثّأى وَالمُفْظِعاتِ الصّوَادعِ

ولما انهزم ابن الأشعث الى الكوفة مال إليه أهلها، واجتمع أهل الكوفة وأهل البصرة وأهل الثغور والقراء من المصرينِ على حرب الحجاج، فكانت معركة دير الجماجم(٨٣هـ)، التي وصفها الفرزدق وصفا دقيقا مفصلا ذاكرا اسماء ابرز من شارك فيها،كعبدالله بن رزام الحارثي وحريش ابن هلال القريعي وعطية بن عمرو العنبري،وهم من فرسان العرب الشجعان:(٥٢)

لَبِئْسَتْ هَدَايَا القَـــافِلينَ أَتَيْتُمُ بهَا أهلَكُمْ يا شرّ جَيْشَينِ عُنصُرَا
رَجَعتُمْ عَلَيهِمْ بالهَوَانِ فأَصْبَحوا على ظهرِ عُرْيانِ السّلائقِ أدْبَرَا
وَقد كانَ شِيمَ السّيفُ بعد استلالِه عَلَيهِمْ وَناءَ الغَيثُ فيهمْ فأمطَرَا
رَدَدْتُمْ عَلَينا الخيلَ وَالتُّرْكُ عندكُم تَحَدّى طِعاناً بِالأسِـــنّةِ أحْمَرَا

...

وَقَائِعُ للحَجّاجِ تَرْمِـــي نِساؤهَا بِأوْلادِ ما قَد كانَ مِنهُنّ مُضْـمَرَا
فَقُلتُ فِدىً أُمّي لَهُ حينَ صَاولَتْ بِه الحَرْبُ نَابَيْ رَأسِها حِينَ شمّرَا
سَقَى قائِدَيْها السّمّ حتى تَخاذَلُوا عَلَيهـا وَأَرْوَى الزّاعِبـيَّ المُؤمَّـــرَا
سَقَى ابنَ رِزَامٍ طَعْنَةً فَوّزَتْ بِه وَمَحْرُوشَهُـمْ مَـأمُـــومَةً فَتَقَطّـرَا
وأفلت روّاضُ البغالِ ولم تَدَعْ لهُ الخيلُ من اخراج زَوْجيه معشرا
وَأفْلَتَ دَجّـالُ النّفَـاقِ وَمَا نجَا عَطِيّـةُ إلاّ أنّـهُ كَـــانَ أمْـــهَرَا

...

وَمَا تَرَكَتْ رَأساً لبَكرِ بنِ وَائِلٍ وَلا لـــلُكَيزِيّيـنَ إلاّ مُكَـــوَّرَا
وَأفْلَتَ حَوّاكُ اليَمانِيـنَ بَعْدَمَا رَأى الخيلَ تَرْدي من كُميتٍ وَأشقرَا

وهكذا نجد أن شعر الفرزدق قد ارتبط بالواقع، وسجل الأحداث بأشكال عدة مباشرة وغير مباشرة، حيث يكون الشعر وثيقة مباشرة حين يسجل وقائع وأحداثًا ومذاهب بأسمائها ورجالها، ووثيقة تاريخية غير مباشرة، عندما يحتاج إلى قراءة وتأويل لاستنباط دلالتها التاريخية التي تضيف الكثير إلى الوثائق المباشرة.

ومن نتائج معركة دير الجماجم التي انهزم فيها ابن الاشعث أن ذلّ الحجاج أهل العراق إذلالا شديدا، وسعى الى زرع الرعب والرهبة في نفوسهم، وقد وثقالفرزدق هذهالخصلةفيسياسةالحجاج، إذ يقول واصفاشدة بطشه بالمخالفين :(٥٣)

إذا مابَدا الحَجّاجُ للنّــاسِ أطْرَقُوا وَأسكَتَ منهُمْ كلُّ مَن كان يَنطِقُ
فَمــاهُوَ إلاّ بَـــائلٌ منْ مَخـــافَةٍ وَآخَرُ منْهُمْ ظَل بالرّيــقِ يَشْرَقُ
وَطارَتْ قُلوبُ النّاسِ شَرْق اوَ مغْرِباً فَما النّاسُ إلاّ مُهجِسٌ أوْ مُلَقلِقُ

ومما يؤكد نهج رموز السلطة الأموية في اخافة الناس وترهيبهم أيضاسياسة ولاة البصرة أيام الحجاج، فقد كانت أكثر اقامة الحجاج في الكوفة قبل بناء مدينة واسط ، ويقيم نوابا عنه في البصرة، كان أشهرهم ابن عمه الجراح بن عبدالله الحكمي (٨٧هـ-٩٥هـ)، الذييقول الفرزدق مصورا سطوته وجبروته، ومؤكدا علىحالة الرعب والفزع الشديد التي كان يعيشها أهل البصرة في ظل حكمه:(٥٤)

كادَ الفُــؤادُ تَطيـرُ الطّائِراتُ بـه منَ المَخافَـة إذْ قـال ابنُ أيّوب
في الدّار إنّكَ إن تُحدثْ فقد وَجَبتْ فيكَ العُقُوبَـةُ منْ قَطْـعٍ وَتَعذيب
في مَحـــبْسٍ يَتَرَدّى فيـه ذو رِيَبٍ يُخشَى عَليّ شديدِ الهَوْلِ مَرْهوبِ

ويبدو أن الفرزدق وغيره من الشعراء كانوا يعمدون الى تصوير الحجاج وولاته في إهاب من القوة والمنعة والبطش بوحي من الحجاج نفسه، لتكون تلك الصورة جزءا من سياسة ارهاب منظمة هدفها زرع الرعب في نفوس الناس، واخماد صوت المعارضين في العراق والمشرق .

وقد كان المشرق كله يتبع العراق،وكانت خراسان تتبع البصرة أغلب الأحيان، ويعين أمراؤها من قبل ولاة البصرة،فكان الحجاج أيام ولايته العراق هو الذي يرسل نوابا عنه الى خراسان وسجستان والسند، وهو الذي يعزلهم، ومن ذلك عزله ليزيد بن المهلب عن خراسان، الذي ذكره الفرزدق بقوله:(٥٥)

أبَا خَالدٍ بَادَتْ خُرَاسَانُ بَعدكُم وَقَالَ ذَوُو الحَاجَاتِ: أينَيَزِيدُ
فَلا مُطِرَ المَرْوَانِ بَعْدَ كَقَطْرَةً وَلا ابْتلّ بالمَرْوَينِ بَعدَ كَعُودُ

ويجد المتتبع لشعر الفرزدق أن الفرزدق– في أغلب الأحيان – لم يكلف نفسه النظر الى ابعد من حدود الاقليم الذي عاش فيه، حتى وإن طلب منه ذلك، بسبب تركيزه على مدح الولاة والقادة الذين تتابعوا على حكم العراق ولاسيما البصرة[٥٦]، فوجدناه مثلاً يمتنع عن زيارة يزيد بن المهلب الذي طلبه ليمدحه، ويصف معاركه بجرجان[٥٧]،ولم يلبِ له ذلك المطلب، يقول الفرزدق:[٥٨]

دَعَاني إلى جُرْجَانَ وَالرّيُّ دُونَهُ أَبُو خالِدٍ أنـــي إذاً لَزَؤورُ
لآتيَ مِنْ آلِ المُـهَلَّبِ ثَـائِـراً بأعْرَاضِهَـا والدّائِـرَاتُ تَدُورُ
سَأَبَى وَتَأبَى لي تَميمٌ وَرُبّمَـا أَبَيْتُ فَلَمْ يَقْـدِرْ عَلَيّ أَميـرُ
كَأني وَرَحْلي وَالمَنَافيُّ تَرْتَمي بنَـا بجنُوبِ الشَّيْطَيْنِ حَمِيرُ

فلما تولّى يزيد بن المهلب حكم العراق أيام سليمان بن عبدالملك، واستعمل عبد الله بن هلال الكلابي على البصرة، وجعل أخاه مروان على أموره وأمواله بالبصرة،مدح الفرزدق بني المهلب، بعد أن كان يتجنب مدحهم، قائلا :[٥٩]

لأَمْدَحَنّ بَني المُـــهَلَّبِ مدْحَةً غَرّاءَ ظَاهِـــرَةً علـــى الأَشْعَارِ
مِثْلَ النّجُومِ أمامَـها قَمَـرٌ لَهَا يجلو الدُّجى وَيُضِيءُ لَيلَ السارِي
وَرِثوا الطِّعانَ عن المُهلّبِ وَالقَرى وَخَلائقـاً كَتَـــــدَفّقِ الأَنْـــهَـارِ
أمّا البَنُونَ فإنّهـــمْ لَمْ يُورَثُوا كَتُرَاثِـــه لِبَـــنِيه يَـــوْمَ فَخَـارِ
كلَّ المكـارِمِ عَن يَديـه تَقَسّموا إذْ مـــاتَ رِزْقُ أَرَامِلِ الأَمْـــصَارِ
كـانَ المُهَلّبُ للعـــرَاقِ سَكِينَـةً وَحَيَا الرّبِـــيعِ وَمَعْـــقِلَ الفُـرَّارِ

...

أَيَزيـدُ إنَّـكَ لِلمَهَلَّبِ أَدرَكَـت كَفّـاكَ خَيـرَ خَلائِقِ الأَخيـارِ
ما مِن يَدَي رَجُلٍ أَحَقُّ بِما أَتَى مِن مَكرُماتِ عَظايِمِ الأَخطارِ
أَمّا العِراقُ فَلَم يَكُن يُرجى بِهِ حَتّى رَجَعتَ عَواقِبُ الأَطهـارِ
فَجَمَعتَ بَعدَ تَفَرُّقٍ أَجنـادَهُ وَأَقَمتَ مَيـلَ بِنائِـهِ المُنهـارِ

وهنا نلاحظ أن كثيرا ماينعدم الحد الفاصل بين البصرة ومدن العراق في معالجات الفرزدق للمكانين،" فقد كان يرى العراق من بصْرَتِه، رؤية المشرف على وطن عظيم أو أرض مجهولة مرهوبة لعظمتها وترامي اطرافها من محل في أطراف الأرض، كان في الصحراء دائما وإن كان يشعر أنه في العراق دائما حين يكون في البصرة"[٦٠].

وكان يزيد قد انتقل الى خراسان بعد أنضُمّت إليه، عقب مقتل قتيبة بن مسلم الباهلي أمير خراسان الذي خلع سليمان بن عبد الملك بعد أن خافه لموافقته الوليد على خلعه، وخشى أن يولى يزيد بن المهلب خراسان بدلا منه، فاختلف عليه جيشه، وقام عليه رئيس تميم في البصرة وكيع بن حسَّان، وألَّب عليه، ثم شَدَّ عليه في فرسان تميم فقتلوه في ذي الحجة سنة(٩٦هـ)[٦١]، فقال الفرزدق مفتخرا بقومه، وواصفا الحدث:[٦٢]

أتَاني وَرَحْـلي بِالمَدينَـةِ وَقْعَـة ... لآلِ تَمـــيمٍ أقْعَدَتْ كُلَّ قَائِمِ
كأنّ رُؤوسَ النّاسِ إذْ سَمعوا بهَا ... مُدَمَّغَةٌ مـــنْ هَازِمَاتٍ أمَائِمِ
فدىً لسُيُوفٍ منْ تَميمٍ وَفَى بـهَا ... ردائي وَجَلّتْ عَن وُجُوهِ الأهاتِمِ
شَفَينَ حَزَازَتِ النّفُوسِ ولَم تَدَعْ ... عَلَيْنَا مَقـــالاً في وفَاءٍ لِلائِمِ
أبَأنَا بِهِمْ قَتْلَى وَمَافـي دِمَائِهِمْ ... وَفَاءٌ وَهُنّ الشّافِيَاتُ الحَوائِمِ
جَزى الله قَوْمي إذْ أرَادَ خِفَارَتي ... قُتَيْبَةُ سَعْى الأفْضَلينَ الأكَارِمِ

...

نَدِمْتَ على العصْيَـانِ لمّا رَأيْتَنَـا ... كَأنّـــا ذُرَى الأطْوَادِ ذاتِ المَخَارِمِ
على طاعَةٍ لَوْ أنّأ جْبَالَ طَيِّءٍ ... عَمَدْنَ لها وَالهَضْبَ هَضْبَ التّهائِمِ
وَألقَيْتَ منْ كَفّيْكَ حبلَ جَمَاعَةٍ ... وَطَاعَـــةَ مَهْـدِيٍّ شَـدِيدِ النّقَائِمِ
فإنْ تَكُ قَيْسٌ في قُتَيْبَةَأُغضِبَتْ ... فَلاعَطَـــسَتْ إلاّ بِـــأجْدَ عَرَاغِـــمِ

...

وَمَا مِنْهُمَا إلاّ بَعَثْنَا بِرَأسِـهِ ... إلى الشّأمِ فَوْقَ الشّاحّاتِ الرّوَاسِمِ

تؤكد الأبيات السابقة ان الفرزدق قد تعامل مع الموقف تعاملاً حيًّا نابعا من قراءته للواقع والتراث في آن واحد، لتوسعه في معرفة قيمة الشعر، بوصفه صحيفة العرب اليومية التي يطلعون من خلالها على مايجري حولهم من أحداث، ووسيلة محكمة لتوثيق الأخبار وحفظها من الضياع، فوثق احداث تلك المعركة من زاويتها القلبية،

منددا بقيس لعصيانها، ومشيدا بفضل قبيلته، ودعمها المستمر لنظام الحكم الاموي، ومذكرا بخدماتها.

ب-انفراد الفرزدق في رواية الأحداث ووصف تفاصيلها

لقد كان لتركيز شعر الفرزدق على تفاصيل الحدث التاريخي الأثر البالغ في أن يصبح شعره وثيقة تسعف المؤرخين في بناء صورة متكاملة حول أحداث العصر،إذ يجد المتتبع لأخبار العصر في كتب التأريخ اعتماد هذه الكتب بشكل كبير على شعر الفرزدق عند تناولها لتفاصيل الحدث، فقد ساعدته ثقافته التاريخية الواسعة ومعاصرته الحدث على أن يكون شاهدا أمينا علىالعصر،راصدا بارعا لتفاصيل ما كان يسوده من فتن وحروب ، ومن تلك الفتن ما حدث أيام تولي عمر بن عبد العزيز الخلافة الذي أمربعزل يزيد بن المهلب بن ابي صفرة،وسجنه البأن يفضي الاموال التي صارت اليه عند فتحه جرجان وطبرستان، وجعل على البصرة عدي بن أرطاة الفزاري، فهرب يزيد بن المهلبومن معه من سجنه، وقصد البصرة، فغلب عليها، وأخذ عدي بن ارطاة الفزاري عامل يزيد بن عبدالملك- بعدأن خلف عمر بن عبدالعزيز- فحبسه،وخلع يزيد بن عبدالملك.

ويروي الفرزدق قصة اعتراض رؤوس أهل البصرة من قيس وتميم،على استعمال يزيد بن المهلب رجلا يقال له السميدع الكندي من بني مالك بن ربيعة - كانيرى رأي الخوارج-على الأبلة، وكان السميدع هذا قد خرج وأصحاب يزيد وعدي مصطفون، فاعتزل ومعه مجموعة من القرّاء، فقالت طائفة من أصحاب يزيد وطائفة من أصحاب عدي، قد رضينا بحكم السميدع،ثم بعث يزيد إلى السميدع فدعاه إلى نفسه، فأجابه[٦٣]، يقول الفرزدق:[٦٤]

فدىً لرُؤوسٍ مِنْ تَميمٍ تَتابَعُوا إلى الشّأمِ لمْ يَرْضَوْا بحكمِ السَّمَيدعِ
أحُكْمُ حَرُورِيٍّ مِنَ الدِّينِ مارِقٍ أضَــلُّ وَأغْــوَى مِنْ حِمارٍ مُجَدَّعِ

وكان يزيد بن المهلب ينفق الاموال بسخاء على انصاره ومؤيديه فقد كان يقطع لهم قطع الذهب والفضة فمال اليه الناس، فمالت الى يزيد ربيعة وبقية تميم وقيس،بينما يذكر الفرزدق إن عدي اكان لايعطي الا درهمين درهمين، ويقول لا يحل لي أن

اعطيكم من بيت المال دراهماً إلا بامر يزيد بن عبد الملك، ولكن تبلغوا بهذا حتى ياتي الامر في ذلك :[٦٥]

أظُنّ رِجَالَ الدّرْهَمَينِ تَسُوقُهُمْ إلى قَدَرٍ آجالُهُمْ وَمصَارِعُ
وَأحْزَمُهُمْ مَنْ قَرّ في قَعْرِ بَيْتِهِ وَأيْقَنَ أنّ العزمَ لاشَكّ وَاقِعُ

وقال أيضا :[٦٦]

قُلْ لِعَديٍّ جَاءَ مَنْ كُنْتَ تَبْتَغي إليكَ فلا تَحْفِلْ بُدُورَ الدّرَاهِمِ
أتاكَ امْرُؤٌ لَمْ تَخْدُمِ القَوْمَ أُمُّهُ طَوِيلُ السُّرَى أَلْفَيْتَهُ غَيرَنَائِمِ

وحين حدث الصدام بين انصارابن المهلب وجيش عدي بن ارطاة،انهزم انصارعدي، وأُسر عدي، وخضعت البصرة لابن المهلب،وقد أشار الفرزدق – في بعض من ابياته– الى حادثة خروج بني عمرو بن تميم،وهم من أصحاب عدي،ونزولهم المربد، فبعث إليهم يزيدبن المهلب مولى له يقال له دارس فحمل عليهم فهزمهم،[٦٧] إذ يقول :[٦٨]

تَصَدّعَتِ الجَعْرَاءُ إذْ صَاحَ دارِسٌ وَلَمْ يَصْبِرُوا عند السّيوفِ الصّوَارِمِ
جَزى اللهُ قَيْساً عَنْ عَدِيٍّ مَلامَةً وَخَصّ بِهَا الأدْنَينَ أهل المَلاومِ
هُمُ قَتَلُوا مَوْلاهُمُ وَأميرَهُمْ وَلَمْ يَصْبِرُ واللمَوْتِ عندَ المَلاحِمِ

وهكذا نجد أن الفرزدق كثيرا ما كان ينفرد برواية أحداث لم يرد لها ذكرا في كتب التاريخ والمراجع الأخرى، إضافة الى أن المؤرخين قد وجدوا في شعره مادة للاستشهاد على صحة الحدث وسلامته،الأمر الذي يؤكد أنه قد وقف في الجانب المتميز لتاريخ البصرة، فقد زوده وتزود منه.

ويتابع الفرزدق تسجيل الحدث، فيصف مسير جيش مسلمة بن عبد الملك والعباس بن الوليد لمقاتلة يزيد بن المهلب،الذي ترك البصرة، بعد أن استعمل عليها أخاه مروان بن المهلب، وخرج ومعه السلاح وبيت المال حتى نزل واسطاً،ويصف لقاء الجيشين بمسكن، وما دار بينهما من قتال شديد،انتهى بالقضاء على ثورة يزيد بن المهلب ومقتله سنة (١٠٢هـ)، إذ يقول :[٦٩]

نَصَبْتُمْ لهُ قِدْراً فَلَمـــّاغَلتْ لكمْ تحَسّيْتُمُوها حينَ شَبّ وَقُودُهَا
ضَرَبْنَا رُؤوسَ المُوقِديها وَكَبْشَها بِهَنديّةٍ يَفْرِي الحَديدَ حَدِيدُها
جُنُودٌ لِدينِ اللهِ تَضرِبُ مَن طَغى وَمَسْلَمَةُ السّيْفُ الحُسامُ يقودُها

كما راح الفرزدق يحرض بكر بن وائل للأخذ بثأر ابني مسمع(مالك وعبدالملك)، اللذين قتلهما–مع عدي بن أرطاة – معاوية بن يزيد بن المهلب ،لما اتاه خبر قتْل أبيه، وهما من بني قيس بن ثعلبة (وكانا مروانيين)، ويستنكر عليها اعراضها عن ابني مسمع وهما صليبةً، وبكاءها المنتوف وهومولى لبني قيس بن ثعلبة بن عكابة، وكان على شرطة يزيد، فقتل معه، وكان سائر بكر بن وائل مع يزيد بن المهلب،(٧٠) فقال :(٧١)

تُبكّي على المَنْتُوفِ بكرُ بنُ وَائلٍ ... وَتَنهى عن ابنيْ مسمَعٍ مَنْ بكاهُما
قَتيلَين تَجْتَازُ الرّيَـــاحُ عَلَيْهِمَا ... مُجَاورُ نَهْـرَيْ وَاسِطٍ جَســـدَاهُمَا
وَلَوْ أصْبَحَا مِنْ غَيرِ بكْرِ بن وَائلٍ ... لَكَانَ عَلى الجَاني ثَقِيلاً دِمَاهُمَا
غُلامان نالا مثلَ مَا نال مسْمَعٌ ... وَمَا وَصَلَتْ عِندَ النّبَـاتِ لِحَاهُمَا
وَلَوْ كَان حَيّاً مالِكٌ وابنُ مالــك ... لَقَدْ أوْقَـــدا نَارَين عالٍ سَنَاهُما
وَلَوْ غَيرُ أيدي الأزْدِ نالَتْ ذَرَاهُما ... وَلكِنْ بأيدي الأزْدِ حُزّتْ طُلاهُمَا

لما فرغ مسلمة بن عبد الملك من حرب يزيد بن المهلب، جمع له يزيد بن عبد الملك ولاية الكوفة والبصرة وخراسان، فولى مسلمة الكوفة ذا الشامة محمد بن عمرو بن الوليد بن عقبة بن أبى معيط، وقام بأمر البصرة بعد أن خرج منها آل المهلب(٧٢)، فلبث بها غير كثير، ثم عزله يزيد بن عبد الملك، واستعمل عمر بن هبيرة،(وهو قيسي من فزارة) واليا على العراق، فأساء عزل مسلمة الفرزدق وقبيلته، ونظم أبياتا يصور فيها غضبه، وسخط قبيلته تميم على الشرف الذي حازته غريمتها قيس :(٧٣)

نَزَعَ ابنُ بِشْرٍ وَابنُ عَمْروقَبْلَهُ ... وَأخُـو هَرَاةَ لمِثْلِهَـا يَتَوقّـــعُ
وَمَضَتْ لمَسْلَمَةَالرّكابُ مُوَدَّعا ... فَارْعَيْ فَزَارَةَ لا هَنَـــا كالمَرْتَــعُ
وَلَقَدْ عَلِمْتُ لَئِنْ فَزَارَةَ أُمّرَتْ ... أنْ سَوْفَ تَطْمَعُ في الإمارَةِ أشجَعُ
إنّ القِيامَةَ قَدْدَنَتْ أشــرَاطُها ... حَتـى أُمَيّـةُ عَنْ فــزَارَةَ تَنْـــزَعُ

ولم تكن مخاوف الفرزدق وقومه من الوالي الجديد – في احيان كثيرة – ردود فعل عاطفية فحسب ، فقد كانت في بعض منأفعال ابن هبيرة في البصرة ما يسوغ معارضة الفرزدق وقبيلته لسياسته، الأمر الذي دفعه الى توجيه رسائل شعرية عديدة الى يزيد بن عبد الملك يشكو فيها فساد ذمته وجشعه:(٧٤)

أميرَ المُؤمـنين وَأنْتَ وَالٍ شَفيقٌ لَسْتَ بِالوَالي الحَريصِ
أأطْعَمْتَ العِراقَ وَرافِدَيْــه فَزَارِيّاً أحَدَّ يَــد القَميصِ
ولَمْ يَكُ قَبْلَها رَاعي مَخاضٍ لِيَأمَنَهُ عَلــى وِركَيْ قَميصِ
تَفَيْهَقَ بِالعِراقِ أبُو المُثَنّى وَعَلّمَ قَوْمَـهُ أكْــلَ الخَبيصِ
سَتَحْمِلُهُ الدّنيئَـةُ عَنْ قَليلٍ عَلى سِيساءِ ذِعْلِبَةٍ قَمُوصِ

لكن الفرزدق سرعان ما رضى عن ابن هبيرة،ولاسيمابعد أن التقت قيس وتميم في معسكر مضري واحد لمواجهة اليمن وربيعة، وهذا يفسر لنا ردة فعله العنيفة تجاهعزل ابن هبيرةمن قبل هشام بن عبد الملك، وتنصيب خالد بن عبد الله القسري والياً على العراق سنة (١٠٥هـ)،فقد ثارمعترضاعلى قرار خالد القسر يسجن ابن هبيرة،هاجيا أياه بأن أمه كانت نصرانية:(٧٥)

لعَمْــري لئن نابــَتْ فزارَةَ نَوْبــــةٌ لمِن حَدثِ الأيّامِ تحـــــسبُها قسْرُ
لقدْ حَبَسَ القسْري في سجْنِ وَاسِط فتى شيْظَميا ما يُنهْنـــــهُ الزجــرُ
فتىً لـــمْ تُربـــبه النّصَـــارى لمْ يَكنْ غذاءً لهُ لَحْمُ الخنازيرِ والخمرُ

كما ذكّر الفرزدق بما روي عن بناء خالد القسري كنيسة لها تتعبَّد فيها،فقال :(٧٦)

ألا قبَّحَ الرَحْمنُ ظَهْرَ مطيّةٍ أتَتْ تَتَهادَى من دِمَشْق بخَالدِ
وكيفَ يؤمُّ الناسَ مَنْ كانَ أمُّه تَــدينُ بأنّ اللهَ ليـــسَ بواحِدِ
بَنَى بَيْعةً فيهَا الصَّليب لأمّه ويَهدمُ مِن بُغضٍ مَنار المَسَاجِدِ

وتشير ابيات الفرزدق الى التقدير العالي الذي حظى به النصارى أيام الدولة الأموية لما لهم من أيدي بيضاء على الخلافة، فقد سبق أن وقف نصارى الشام ولاسيما تغلب الى جانب معاوية في حربه ضد الإمام علي(عليه السلام)، ومن ثم الى جانب عبدالملك بن مروان في حربه ضد ابن الزبير، كما تؤكدالأبيات حقيقة ماذُكر عن خالد القسري من انه قد أمر بهدم منار المساجد، لأنه بلغه أن شاعراً من موالي الأنصار قد قال:(٧٧)

لَيْتَني في المؤذنين حَياتي إنّهم يُبصُرون مَنْ في السطوحِ
فيُشيرُون أو تشيرُ إليْهم بالهَـــوَى كلّ ذاتِ دَلّ مَلــيحِ

ومن جانب آخر سجل الفرزدق تعاطفه مع ابن هبيرة، إذ روى لنا قصة هربه من سجن خالد القسري، وكيف انه قد أمر غلمانه فحفروا له تحت الأرض سرداباً حتى خرج الحفر تحت سريره، ثم خرج منه ليلاً، وقد أُعدت له أفراس يداولها، حتى أتى مسلمة بن عبد الملك، فاستجار به فأجاره:(٧٨)

ولمّا رَأيْتَ الأرْض قَدْ سُـدّ ظَهرُهَا ... وَلمْ تَرَ إلاّ بَطْنَهَا لَكَ مَخْرَجَا
دَعَوْتَ الـذي ناداهُ يُونُـسُ بَعدَمَا ... ثَوَى في ثلاثٍ مُظْلمَـات فَفَرّجَا
فأصْبحتَ تحتَ الأرْض قد سرّت ليلَةً ... وَمَا سَارَ سَارٍ مِثْلَها حينَ أدْلَجَا
هُمَا ظُلْمَتَـا لَيْـلٍ وَأرْضٍ تَلاقَـتَا ... عَلى جَامِـحٍ مِنْ أمرِهِ ما تَعَرّجَا
خَرَجْتَ وَلمْ يَمـنُنْ عَلَيـكَ طَلاقَـةً ... سِوَى رَبذِ التّقْرِيبِ من آلِ أعوَجَا
أغَرَّ مِـنَ الحـوّ الجِيـادِ إذا جَرَى ... جرَى جرْيَ عُريانالقَرَا غيرِ أفحجا
جَـرَى بكَعْبَيـانُ الحَمـاتَينِ لَيـلَةً ... بها عَنكَ رَاخى الله ما كانَ أشنَجَا
وَما احتَالَ مُحتالٌ كَحيـلَتِه الّتـي ... بهَا نَفْسَهُ تحتَ الصَرِّيـمةِ أوْلَجَا
وَظلماءَ تحتَ الأرْضِ قد خضّتَ هوْله ... اوَلَيْلٍ كَلَوْنِ الطّيْلَسـانيّ أدْعَجَا

وتؤكد الأبيات السابقة حقيقة فضلشعر الفرزدق في حفظ تلك الأخبار باعتباره شروحا لإشارات، وتفصيلا لما أجمل من حوادث، كما تجدر الإشارة هنا الى أن القيمة التوثيقية لهذه الحكاية الشعرية لاتتأثر كثيرا بكونها وقعت على هذا الوجه أو اُختلِقت لتفسر لنا واقعا قائما في ذلك العصر.

وكان خالد القسري قد جعل مالكبنالمنذربنالجارود على الشرطة والأحداث في البصرة، فصار لزاما على الفرزدق أن يصطدم به ، لذا استقبل هذا الحدث بقوله :(٧٩)

يُبَغّض فينا شرطةً المصرأنني ... رأيتُ عليها مالكاً عَقِبَ الكلبِ

وعندما طلب ابن الجارود الفرزدق، جاءه الفرزدق معتذرا :(٨٠)

أقُولُ لنفْسِي حينَ غصَّت بريقها ... ألا ليْتَ شعْرِي مَالـها عند مالكِ
لَهاعنْده أن يَرجِعَ اللّهُ رُوحَها ... إليهاوتنْجو مِن جَـميع المَـهالكِ
وأنتَ ابنُ حَبَّارَيْ ربيعةَ أدركتْ ... بكَ الشمس والخضراءَ ذاتَ الحبائكِ

فصفحمالك عنه،لكنه أمربحبسه،لأن خالد القسري قدأمره بذلك، بعد أن ادعى أنه هجا هشام ابن عبد الملك بأبيات قالها حين حفر خالد النهر الذي سماه المبارك[٨١]، يقول الفرزدق :[٨٢]

أَهْلَكْتَ مالَ الله في غَيرِ حَقّه عَلى النّهَرِ المَشْؤومِ غَيرِ المُبَارَكِ
وَتَضْرِبُ أقْواماً صِحاحاً ظُهُورُهَا وتَتْرُكُ حَقّ الله في ظَـهْرِ مالِكِ
أإنْفَاق مالِ الله في غَيرِ كُنْهِه وَمَنْعاً لحَقّ المُرْمَـلاتِ الضّوَائِكِ

تشخص أبيات الفرزدق حالة الفساد الإداري المستشري لدى ولاة بني أمية وأتباعهم، الذين راحوا يحفرون الأنهار، ويبددون عليها من المال الذي أئتمنوا عليه ليجنوا هم ثمراتها، فقد ذكر اليعقوبي إن هشام بن عبد الملك لمّا عزم على عزل خالد القسري كتب الى يوسف بن عمر الثقفي عامله باليمن يأمره بالنفوذ الى العراق، فيقبض على خالد وأصحابه، فيأخذه بستة وثلاثين ألف ألف درهم.[٨٣]

ويرجع بغض الفرزدق لخالد القسري كونه كان عنيفا في تعصبه لليمن، وأذل قيسا وتميما اذلالا شديدا، فكان الفرزدق أيام هشام بن عبد الملك كثير الشكوى والتذمر من سياسة الأمويين، ولاسيما تلك التي تتعلق باختيار الولاة وتعيينهم، واتهام هؤلاء الولاة بتقصد الاساءة لقبيلته، وسوء إدارتهم للولاية :[٨٤]

فَقُلْ لبَني مَرْوَانَ: ما بالُ ذِمّةٍ وَحُرْمَةِ حلٍّ لَيسَ يُرْعَى ذِمامُهَا
ألا في سَبِيلِ الله سَفْكُ دِمَائِنَا بِلا جُرْمَةٍ مِنّا يَبِينُ اجْتِرَامُهَا

...

فَغَيّرْ أميرَ المُؤمنينَ فَإنّهَا يَمَانِيَةٌ حَمْقَاءُ أنْتَ هِشامُهَا
أبابنِ يَزِيدٍ وَابنِ زَحْرٍ تَحَلّلَتْ دِمَاءُ تَمِيمٍ وَاستُبِيحَ سَوَامُهَا

وكان مالك بن المنذر بن الجارود العبدي صاحب شرطة خالد قد أثار حفيظة مضر وتميم حين قُتِل في حبسه عمر بن يزيد الأسيدي، ضربا بالسياط، وحين أتت رجال من بني تميم خالد القسري وشهدوا أن مالكا قد قتله، ولم يقبل منهم شهادتهم، قال الفرزدق مخاطبا خالد القسري :[٨٥]

أتَتْكَ رِجَالٌ مِنْ تَمِيمٍ فَشَهّدوا فَضَيّعْتَ حَقّ الله في ظُلْمِ مالِكِ

وقد استطاع الفرزدق بعد ذلك أن يستغل هذه الحادثة التي شغلت حياة البصريين لفترة طويلة، لإثارة الخليفة ضد مالك بن المنذر، حين راح يوجه رسائل شعرية الى هشام بن عبدالملك، يردد فيها ان عمرا والسياط تأخذه كان ينادي: ياهشام:(٨٦)

أَلَمْ يَكُ قَتْلُ عَبْدالقَيْسِ ظُلما أبا حَفْصٍ مِنَ الحُرَمِ العِظَامِ
قَتِيلُ عَداوَةٍ لَمْ يَجْنِ ذَنْـــباً يُقَطَّعُ وَهُو يَهْـــتِفُ بالإمَامِ

فبعث هشام في طلب ابن الجارود وسجنه الى أن مات في سجنه، وعندما بكته امرأته أم شهاب بنت عبد الملك بن مسمع بن مالك،خاطبها الفرزدق مستنكرا، ومذكرا أياها بقتل أبيها وعمها من قبل معاوية بن يزيد بن المهلب :(٨٧)

أتَنْسى قتيلَ الأَسْدِ في بِئْرِ واسط وَتَبْكي لعبْدِ القيسِ ضلّ ضِلالُها

بعد أن هلك مالك، ولى خالد القسري بلال بن ابي بردة شرطة البصرة وأحداثها سنة (١٠٩هـ)، وكان بلالأديبا فصيحا، راوية للشعر، قد جمع حوله الكتاب والأدباء، فأتاه الشعراء وفي مقدمتهم الفرزدق،الذي مدحه بمدائح كثيرة(٨٨)، منها قوله :(٨٩)

تَرَاءى بِلالاً كُلُّ عَيْنٍ إذا بَدَا كمَا يَتَراءَى في السّمَـاءِ هِلالُها
وَأَرْمَلَـةٍ تَدْعُو بِلالاً فَقِيـرَةٍ وَمَالُ بِلالٍ حِينَ يُنْفِـضُ مالُها
وَلَمْ تَسْتَغِثْ كَفّـــيْ بِلالٍ فَقِيرَةٌ إذا مَا دَعَتْ إلاّ عَلَيْهِ عِيَـــالُها
سَتَأتي بِلالاً مِدْحَتي حَيثُ يمّمَتْ بِه العِيسُ أوْ سودٌ عَلَيها جِلالُها
فَدُونَـــكَ هَذِي يـا بِلالُ فإنّهَا سَيَنْمَى بِهَا فَوْقَ القَوَافِـــي نِقَالُه

ومن ولاة البصرة أيام خالد بن عبد الله القسري الذين ذكرهم الفرزدق في شعره ولم نجد له في كتب التاريخ سوى اخبار قليلة- أبرزها صلاته على جنازة محمد بن سيرين-، النضر بن عمرو المقرائي الحميري، فقد أشاد الفرزدق بدعوته لإخلاء سبيله من سجن مالك بن الجارود:(٩٠)

إذا ما بَريدُ النَضرِ جاءَ بِنَصرِهِ وَسُلطانِـهِ أَلقى قُـــيودَ ابنِ غالِبِ
لَئِن مالكٌ أَمسى قَد انشَعَبَت بِهِ شَعوبُ الَّتي يودى لَها كُـــلُّ ذاهِبِ
لَقَد أَنزَلَ اللَهُ الَّذي تَلتَـــقي بِهِ عَلَيهِ مَنايـا المَوتِ مِن كُلِّ جانِبِ
لَئِن مالكٌ أَمسى ذَليلاً لَطالَمـا سَعى في الَّتي لا فا لَها غَيرَ آيِبِ
لَئِن كُنتَ قَد أَبكَيتَ قَبلَكَ نُسوَةً كِراماً فَهَذي دائِـــلاتِ العَواقِـــبِ

تُجازى بِما جَرَّت يَداكَ وَبِالَّذي عَلِمَت فَلا تَجزَع لِصَرفِ النَوائِبِ
وَأَصبَحَ في دارٍ هُنــاكَ مُفَزَّعاً إِذا مالِكٌ جافى بِهِ كُلُّ جانــبِ

وتجدر الإشارة هنا الى أن مع طول ولاية خالد القسري على العراق(١٠٥ – ١٢٠ هـ)،فلا تكاد تذكر كتب التاريخ الكثير عن اعماله (وأعمال ولاته)إلا من خلال شعر الفرزدق، وهذا يؤكد حقيقة أن شعر الفرزدق كان بمثابة الوثيقة التي اعتمد عليها المؤرخون في تسجيلهم لأحداث العراق المهمة أيام خالد القسري[٩١].

ومن أحداث العراق المهمةالتي أشار اليها الفرزدق في شعره أيام ولاية خالد بن عبد الله القسري، إثارة أسد بن عبد الله القسري للتعصب القبلي في خراسان حتى أفسد الناس، وضرب نصر بن سيار ونفراً معه بالسياط، وحلقهم وسيرهم إلى أخيه خالد، وكتب إليه: إنهم أرادوا الوثوب بي،فلما قدموا على خالد، لام أسداً وعنفه، وقال: ألابعثت إلي برؤوسهم[٩٢]، وأمر بحبس نصر ومن معه سنة (١٠٩هـ)، إذ يقول الفرزدق :[٩٣]

أخالِدُ لَوْلا الدِّينُ لمْ تُعطــَ طاعَةً وَلَوْلا بَنو مَرْوانَ لمْ تُوثِقوا نَصْرَا
إذاً لَوجَدْتُـــمْ دُونَ شَــدّ وَثَاقِـه نبي الحرْبِلا كُشْفَ اللقاءِ وَلا ضُجرَا
مَصَاليتَ أبْطالاً إذا الحَرْبُ شَمَّرَتْ مَرَوْها بأطْرَافِ القَـــنا دِرَراً غُزْرَا
ألا يا بَـني مَرْوَانَ مِثْلُ بَلائنـــا إذا لم يُصِبْ مَن كان يُنعِمُهُ شُكْرَا
جَدِيرٌ لأنْ يُنْسَى إذا ما دَعَوْتــمُ وَيُورِثَ في صَدْرِ المُعيدِ لَهُ غِمْرَا
أفي الحقّ أنّا لا تـزَالُ كَتِيبــَةٌ نُطاعِنُها حَـتى تَدِينَ لَكُـــمْ قَسْرَا

بقي أن نقول إنأحداث ولاية خالد القسري هي آخر ما سجله الفرزدق من أحداث حيث حددت أغلب الروايات سنة وفاته بين ١١٠ – ١١٤ هـ ، وواضح أن أبيات الفرزدق الأخيرة قد وثقت بداية النهاية للحكم الأموي، حيثتجدر الإشارة الى أن ولاية خالد القسري على العراق وأخيه أسد على خراسان وما دار بها من أحداث كانت الثغرة التي نفذ منها دعاة بني العباس ليبثوا دعوتهم، ويحتموا بقبائلهم، متخذين من العصبية ستارا، ولا عجب بعد أن تعمّ خراسان وتمزقها حروب العصبية التي طاب لأبي مسلم الخراساني بعد ذلك أن يغريهم بها ليكتب له الظفر، ويعلن دعوة بني العباس سنة (١٣٢هـ) .[٩٤]

الهوامش

(١) ينظر، حركة الشعر بين الفلسفة والتاريخ، د.عبد الله التطاوي ص٣٩ .

(٢)السابق، ١٢

(٣) الفرزدق، شاكر الفحام: ٨ .

(٤)الاصابة في تمييز الصحابة: ١٨٠/٢.

(٥) ينظر،الطبري : ٦٣٩/٢ .

(٦)الاغاني،الاصفهاني: ٢٨٥/١٦ .

(٧) ينظر، السابق : ١٦٩/٣-١٧١ .

(٨) ديوان الفرزدق،علي فاعور : ٦٠٢-٦٠٥ .

(٩) ينظر، من تاريخ الأدب العربي، طه حسين : ٦٤٨ .

(١٠) ينظر، تاريخ الطبري : ٣/ ١٩٤ .

(١١) ينظر،السابق : ٣/ ١٩٦ .

(١٢) ينظر،نفسه : ٣/ ١٩٨ .

(١٣) طبقات فحول الشعراء : ٢/ ٣٠٣ .

(١٤) ديوان الفرزدق،علي فاعور : ٤٢٩ .

(١٥) السابق : ٥٣٣ .

(١٦) نفسه : ٥٢٦ .

(١٧) نفسه: ١٣٣ .

(١٨) نفسه : ٥٤٨ .

(١٩) نفسه : ٢٨٧ . ينظر أيضا قوله في هجاء مسكين الدارمي، ديوانه : ١٨٠ .

(٢٠) نفسه : ٥٤٢- ٥٤٣ .

(٢١) نفسه: ٣٧٣ .ينظر أيضا وصف خوفه من زياد،ديوانه: ٤٠٠ ، ٥٤٢-٥٤٣ .

(٢٢) ينظر، تاريخ الطبري : ٣/ ٢٠٧ .

(٢٣) ديوان الفرزدق: ١٥٢ .

(٢٤) الاغاني : ٣٩٦/٢١ .

(٢٥) السابق : ٢١/ ٣٦٢ .

(٢٦) تاريخ الطبري : ٢٩٣/٣ .(لم ترد هذه الأبيات في ديوان الفرزدق) .

(٢٧) ديوان الفرزدق : ٥٢٦ .

(٢٨)الكامل في التاريخ، ابن الأثير: ٤٧١/٣-٤٧٣ .

(٢٩) ينظر، تاريخ الطبري: ٣/ ٣٧٧ .

(٣٠) السابق : ٣/٣٧٠ .

(٣١) لأنه مر بمكيال بالبصرة فقال إن هذا لقباع صالح ، ينظر، الطبقات الكبرى، ابن سعد : ٥/ ٢٩ .

(٣٢) ينظر، الأغاني : ٣/ ٢٥٤-٢٢٥ . يذكر الاصفهاني أنه لما تواقف جرير والفرزدق بالمربد للهجاء اقتتلت بنو يربوع وبنو مجاشع فأمدت بنو العم بن يمجاشع وجاؤوهم وفي أيدهم الخشب فطردوا بن ييربوع .

(٣٣) ديوان الفرزدق : ٥٠٥.

(٣٤) تاريخ الطبري : ٣/ ٤٨٣ .

(٣٥) انساب الاشراف،البلازري : ٥/ ٤٧٣ .

(٣٦) ينظر، تاريخ الطبري : ٣/٥١٨ .

(٣٧) ديوان الفرزدق : ٤١٣-٤١٤ .

(٣٨) الأغاني : ٣/ ٣٥٨ .

(٣٩) ينظر،ديوان الفرزدق : ٢٢٣ .

(٤٠) ديوان الفرزدق : ٤٤٩ .

(٤١) السابق : ٤٠٥ ، وينظر أيضا، شرح ديوان الفرزدق، الصاوي : ٢/ ٥٨٦ .

(٤٢) ينظر، العقدالفريد، ابن عبد ربه: ١/ ١٣٣ .

(٤٣) ديوان الفرزدق: ٥١-٥٢ . ذكر الشارح: خالد بن عبد الله بن خالد(القسري)، وصحيح (ابن ابي العيص). وينظر أيضا في ذكر فضل عبيد الله بن أبي بكرة، ديوان الفرزدق: ٥٧٩ .

(٤٤)السابق :٤٣٤.أورد الشارح في الديوان (وقبله الصاوي أيضا): (قال لخالد بن عبد الملك بن خالد) والصحيح (خالد بن عبد الله بن خالد)

(٤٥) ينظر، تاريخ الطبري : ٣/ ٥٤٢ .

(٤٦) ينظر، البداية والنهاية، ابن كثير : ٧/٩ .

(٤٧) ديوان الفرزدق : ١٦٠ . ينظر أيضا مدائح الفرزدق في بشر، الديوان : ١٨-٢٠، ٢٠٤-٢٠٧ .

(٤٨) السابق : ١٩٣ .

(٤٩) شعر الفرزدق،دراسة نصية : ١٠٥ .

(٥٠) الكامل في الادب واللغة، المبرد : ٢/ ١١٨ . وهنا كحادثة أخر بمشابه، ينظر الديوان: ١٤٦.

(٥١) ديوان الفرزدق : ٣٤١-٣٤٢ .

(٥٢) السابق : ٢١٠-٢١٣ .
(٥٣) نفسه : ٤١٠ . وينظر أيضا ديوان الفرزدق : ٤٧٤-٤٧٦ ، ٥٣٣ .
(٥٤) نفسه : ٢٨ .
(٥٥) نفسه: ١٢٦ .
(٥٦) ينظر، وصف المعارك والقتال في شعر الفرزدق : ٢٩-٣١ .
(٥٧) ينظر، شرح ديوان الفرزدق، الصاوي: ٢٤٣/١ .
(٥٨) ديوان الفرزدق : ١٧٨ .
(٥٩) السابق: ٢٦٥ .
(٦٠) شعر الفرزدق، دراسة نصية : ١٧٦ .
(٦١) ينظر، الكامل في التاريخ :٤/ ٢٩٣-٢٩٨ .
(٦٢)ديوان الفرزدق : ٦١٣-٦١٤ .
(٦٣) ينظر، تاريخ الطبري : ٧٨/٤ .
(٦٤) ديوان الفرزدق : ٣٥٤ .
(٦٥) السـابق : ٣٦٣ .
(٦٦) نفسـه : ٥٧٧ .
(٦٧) ينظر، تاريخ الطبري : ٤/ ٧٦ .
(٦٨) ديوان الفرزدق : ٥٤٩ .
(٦٩) السابق : ١٥٣ . ينظر أيضا ديوان الفرزدق : ٨٥ .
(٧٠) الكامل في في اللغة والأدب : ٢٨٦/١.
(٧١) ديوان الفرزدق : ٥٣٢ .
(٧٢) تاريخ الطبري : ٤/ ٩٠ .
(٧٣) ديوان الفرزدق : ٣٥٣ .
(٧٤) السابق : ٣٣٨ . ينظر أيضا هجاء الفرزدق لابن هبيرة، الديوان : ٤٤١- ٤٤٢ .
(٧٥) الكامل في اللغة والادب : ٢/ ٣٩٨ . ينظر أيضا رسالة الفرزدق الى هشام بن عبد الملك وهو في سجن خالد القسري، ديوان الفرزدق : ١٤٥ .
(٧٦) وفيات الاعيان،ابن خلكان : ٢٢٨/٢-٢٢٩ .
(٧٧) الكامل في اللغة والادب : ٢/ ٣٩٠ .
(٧٨) ديوان الفرزدق: ١١٠- ١١١. ينظر أيضا مدحة لابن هبيرة، ديوان الفرزدق : ٢٠١-٢٠٢، ٢٨٩-٢٩٠.
(٧٩) الأغاني :١٠/ ٣٨٠ .

(٨٠) ديوان الفرزدق : ٤١٣ .

(٨١) ينظر، طبقات فحول الشعراء : ٢/ ٣٤٧ .

(٨٢) ديوان الفرزدق : ٤١٥ . ينظر أيضا قوله في حفر النهر المبارك، ديوانه : ٤١٤ .

(٨٣) ينظر، تاريخ اليعقوبي : ٢/ ٣٢٣ .

(٨٤)ديوان الفرزدق : ٥١٦ .

(٨٥) السابق : ٤١٤ .

(٨٦) نفسه : ٥٨٧- ٥٨٨ . ينظر أيضا رسائله الشعرية لإثارة هشام بن عبد الملك ضد مالك بن الجارود ، ديوان الفرزدق: ٢٦٩، ٥٦٠- ٥٦١ .

(٨٧)شرح ديوان الفرزدق، الصاوي :٢/ ٦٨٩ .

(٨٨) ينظر،ديوان الفرزدق :٤٧-٤٩، ٦١-٦٢، ٦٤-٦٥، ٣٨٠-٣٨١ ، ٤٥٩، ٤٧٢-٤٧٣.

(٨٩) ديوان الفرزدق : ٤٥٢-٤٥٣ .

(٩٠) السابق : ٣١- ٣٢ . ذكر الشارح ان الابيات قيلت في النضر بن شميل الذي توفي سنة (٢٠٣هـ)، (أي بعد وفاة الفرزدق بأكثر من (٩٠) عاما ، والصحيح انها قيلت في النضر بن عمرو المقرائي ، ينظر أيضا قوله في مدح النضر بن عمرو المقرائي، ديوان الفرزدق : ٤٨٦- ٤٨٧ .

(٩١) يقول د. عبد المجيد الكبيسي عن ولاية القسري : " ومع طول ولاية خالد على العراق ،فلا نكاد نعرف الكثير عن اعماله إلا من خلال ما نقم الناس عليه منها .. فكان يهدم المساجد ويبني البيع والكنائس، فقال الفرزدق في ذلك : ... بنى بيعة فيها الصليب لأمـه***ويهدم من كفر منار المساجد، كما نقم الناس من خالد حفره نهر المبارك الذي كلف ١٢ مليون درهم، فقال الفرزدق في هذه المناسبة :أهلكت مال الله في غير حقه...الابيات " ينظر. عصر هشام بن عبدالملك : ١١٢ .

(٩٢) ينظر، تاريخ الطبري : ٤/ ١٢٥ .

(٩٣) ديوان الفرزدق : ٢٨٢ .

(٩٤) ينظر، الفرزدق، شاكر الفحام: ٤٤ .

المصادر والمراجع

١. الإصابة في تمييز الصحابة، أحمد بن علي بن حجر أبو الفضل العسقلاني الشافعي، تحقيق: علي محمد البجاوي، دار الجيل – بيروت، ١٤١٢ .

٢. الأغاني،أبي الفرج الأصفهاني، تحقيق: سمير جابر،دار الفكر– بيروت، ط ٢،دت.

٣. أنساب الأشراف، أحمد بن يحيى بن جابر البلاذري، تحقيق:الشيخ محمد باقر المحمودي، دار المعارف بمصر، ١٩٥٩م .

٤. البداية والنهاية، إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي، مكتبة المعارف – بيروت، د ت.

٥. تاريخ الأمم والملوك، محمد بن جرير الطبري، دار الكتب العلمية – بيروت، ١٤٠٧هـ .

٦. تاريخ اليعقوبي، أحمد بن أبي يعقوب بن جعفر، دار صادر للطباعة والنشر– دار بيروت، بيروت، ١٣٧٩هـ– ١٩٦٠م .

٧. حركة الشعر بين الفلسفة والتاريخ، د.عبد الله التطاوي، دار الثقافة للنشر والتوزيع_ الفجالة، ١٩٩٢ .

٨. ديوان الفرزدق، شرح علي فاعور، دار الكتب العلمية –بيروت، ١٤٠٧هـ – ١٩٨٧م.

٩. شرح ديوان الفرزدق، جمع وتعليق عبدالله اسماعيل الصاوي، مطبعة الصاوي ١٩٣٦م.

١٠. شعرالفرزدق، دراسة نصية، محمد طالب الأسدي، اطروحة دكتوراه–كليةالآداب جامعة البصرة، ٢٠٠٩م .

١١. طبقات فحول الشعراء ، محمد بن سلام الجمحي، تحقيق: محمود محمد شاكر، دار المدني – جدة، د ت .

١٢. الطبقات الكبرى،محمد بن سعد أبوعبدالله البصري الزهري،دار صادر– بيروت ، دت .

١٣. عصر هشام بن عبدالملك (١٠٥ . ١٢٥ هـ) عبدالمجيد محمد صالح الكبيسي، مطبعة الأعظمي – بغداد، ١٩٧٥ .

١٤. العقد الفريد، شهاب الدين أحمد بن محمد بن عبد ربه الأندلسي ، دار الكتب العلمية – بيروت، ١٤٠٤هـ .

١٥. الفرزدق، شاكر الفحام، دار الفكر– دمشق، ١٩٧٧م .

١٦. الكامل في التاريخ،ابن الاثير الجزري، مراجعة د.محمد يوسف الدقاق، دار الكتب العلمية– بيروت، ١٩٨٧م .

١٧. الكامل في اللغة والأدب، ابو العباس محمد بن يزيد المبرد، تحقيق: د. عبد الحميد هنداوي، اصدارات وزارة الشؤون الاسلامية والاوقاف والدعوة والارشاد– المملكة العربية السعودية ،١٤١٩هـ– ١٩٩٨م .

١٨. من تاريخ الأدب العربي،العصر الجاهلي والعصر الإسلامي، طه حسين، دار العلم للملايين – بيروت، ١٩٧٠ .

١٩. وصف المعارك والقتال في شعر لاالفرزدق، رسالة ماجستير، بهجت مهجر حبش الطعمة، كلية الآداب– جامعة البصرة، ١٤٢٦هـ–٢٠٠٥م

٢٠. وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، أبو العباس شمس الدين أحمد بن محمد بن أبي بكر بن خلكان، تحقيق: إحسان عباس، دار صادر – بيروت، ١٩٧١م .